

أثر التصوف في تعزيز الوسطية والاعتدال

الدرس
20

أهداف الدرس

1. أن أتعرف مفهوم الوسطية والاعتدال .
2. أن أثبت أثر التصوف في تعزيز الوسطية والاعتدال .
3. أن أتمثل الفكر الوسطي علماً وعملاً .

تمهيد

التصوف الإسلامي قائم على الكتاب والسنة، منهما يستمد، وبمنهجهما ينضبط، تجلّى أثره على سالكي هذه الطريقة علماً وعملاً، متبعين نهج السلف المتقدمين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، بمنهج الوسطية والاعتدال الذي جاءت به شريعة الإسلام عقيدة وعبادة ومعاملة. فما هي الوسطية والاعتدال؟ وما أثر التصوف السني في تعزيز الوسطية والاعتدال؟

نص الانطلاق

قال الشيخ ابن عجيبة رحمه الله: «النفْسُ الطبيعية والروح متقابلان، والحرب بينهما سجّال، فالنفس تريد السقوط إلى أرض الحظوظ والبقاء مع عوائدها، والروح تريد الخروج إلى سماء المعارف وحضرة الأسرار، وبينما اتصال والتصاق، فإن غلبت النفس هبطت بالروح إلى الحضيض الأسفل، ومنعتها من العلوم الدنية والأسرار الربانية، وإن غلبت الروح، عرجت بالنفس إلى أعلى عليين، بعد تركيتها وتصفيتها، فتكسوها حُلّة الروحانية، وينكشف لها من العلوم والأسرار ما كان للروح، ولكلّ جندٍ تقابل به...، وتؤخذ النفس بالسياسة شيئاً فشيئاً، يُنقص من حظوظها شيئاً فشيئاً، حتى تتزكى وتعالج الروح لدخول الحضرة، وعكوف الهم في الذكر شيئاً فشيئاً، حتى تدخل الحضرة وهي لا تشعر، ثم تشعر ويقع الاستغراق. وأما إن قُطعت النفس عن جميع مألوفاتها مرةً واحدة، أو كُلفت الروح

الحضورَ في الذكر على الدوام مرةً واحدةً، أفسدتهما...، وتُردع النفس إن طغت، وتأخذ لجام الروح إن هاجت، حتى تفيء إلى أمر الله، وهو الاعتدال، فيعطي كلَّ ذي حق حقه، ويُوفي كلَّ ذي قسط قسطه...». [البحر المديد، 424/5 بتصرف].

الفهم

الشرح:

- **الأسرار:** السر عند الصوفية على ثلاث مراتب: سر العلم، وسر الحال، وسر الحقيقة.
 - **الروح:** تعني في اصطلاح القوم «اللطيفة الإنسانية المجردة».
- استخلص من النص مظاهر الوسطية في تهذيب النفس لدى الصوفية.

التحليل

أولاً: الوسطية والاعتدال

أصل الوسطية -كما قال ابن فارس- «الواو والسين والطاء بناءً صحيح، يدلُّ على العدل والنَّصف، وأعدل الشيء أوسطه ووسطه» [مقاييس اللغة، 6/108]. فالوسطية هي الاعتدال في الأقوال والأفعال، والاستقامة في الأمر بلا إفراط ولا تفريط، والاعتدال هو القصد في الأمر والتوسط فيه، ومعناهما (الوسطية والاعتدال) في هذا السياق الإتيان بالشيء كما أَراده الله بلا غلو ولا تقصير، قال الشيخ ابن عجيبة: «(الوسط) هو العدل الخير الفاضل، وهو في الأصل اسم للمكان الذي تستوي إليه المساحة من الجوانب، ثم استعير للخصال المحمودة لوقوعها بين طرفي إفراط وتفریط، كالجود بين الإسراف والبخل، والشجاعة بين التهور والجبن» [البحر المديد، 1/174].

ثانياً: أثر التصوف السني في تعزيز الوسطية والاعتدال

1. أثر التصوف في وسطية العلم والعمل

- **في جانب العلم،** بما يتضمنه الفكر الصوفي من معارف وأفكار قوامها الوسطية والاعتدال في النظر إلى: الكون، والإنسان، والحياة، بما يحقق التوازن والسعادة الإنسانية، مستمداً معارفه

من الوحي الذي لا يضل متبعه ولا يشقى، بمنهج وسطي يحقق فيه وصف وسطية الأمة في كل شيء، ويجد فيه الجواب عما يخالجه من مسائل عالم الغيب والشهادة، فلا يغالي في نظره إلى الأشياء، ولا يجاوز الحد في الأحكام، يكتسب الحقائق من معدنها الأصيل، ويتوقف فيما لا علم له به؛ إذ هديه وقوام أمره على ما أرشده إليه ربه ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: 36] ولا يخوض فيما ليس من شأنه، معارفه منضبطة بالكتاب والسنة، يوظف في اكتسابها المعرفة والعقل والحواس والإلهام، فتأتي مستقيمة وفق صراط الله المستقيم.

- **في جانب العمل**، بما ينظم من حدوده، وما يحقق من وسطية فيه، منضبطا بضوابط الشرع، لا غلو فيه ولا إفراط، وأصل الوسطية في كل عمل ما هو معلوم من نصوص الكتاب والسنة التي تحرم الغلو والمبالغة، ولو كان ذلك في العبادة، قال الشيخ زروق رحمه الله «التشديد في العبادة منهي عنه، كالترخي عنها. والتوسط: أخذ بالطرفين، فهو أحسن الأمور، كما جاء: «خير الأمور أوسطها» [شعب الإيمان، كتاب الجهاد، باب الاقتصاد في النفقة وتحريم أكل المال بالباطل] ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْبَغُوا لَمْ يَسْرِفُوا وَلَمْ يُفْتِرُوا وَكَانَ بَيْنَهُمَا قَوَامًا﴾ [الفرقان: 67] ﴿وَلَا تَجْعَلْ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: 109]. وقال عليه الصلاة والسلام: «أما أنا فأقوم وأنام، وأصوم وأفطر». وكان يقوم من الليل نصفه، وثلثه إلى ثلثيه، وهو الوسط باعتبار من يأتي على كله، أو لا يقوم منه إلا اليسير. وكذلك رد عبد الله بن عمر للوسط بصيام نصف الدهر وقيام نصف الليل، وختم القرآن في سبع إلى غير ذلك، فلزم التوسط في كل مكتسب، لأنه أرفق بالنفس وأبقى للعبادة، والله أعلم». [قواعد التصوف، ص 162].

2. مظاهر الوسطية والاعتدال في التصوف السني

- **الوسطية في العمل والفرار إلى الله**، فلا يمنع الصوفية أنفسهم ما أحل الله لهم، ولا يبالغون في المباح الذي يحول بينهم وبين العمل، قال الإمام الشاطبي -رحمه الله- متحدثا عن المنقطعين إلى الله (الصوفية) فيما امتازوا به من نحلته المعروفة «شأن المنقطعين إلى الله فيما امتازوا به من نحلته المعروفة؛ فإن الذي يظهر لبادئ الرأي منهم أنهم التزموا أمورا لا توجد عند العامة، ولا هي مما يلزمهم شرعا؛ فيظن الظان أنهم شددوا على أنفسهم، وتكلفوا ما لم يكلفوا، ودخلوا على غير مدخل أهل الشريعة. وحاش لله! ما كانوا ليفعلوا ذلك وقد بنوا نحلته على اتباع السنة وهم باتفاق أهل السنة صفوة الله من الخليقة...» [الموافقات، 2/242].

– **السعي نحو العمل دون اعتقاد بلوغ الكمال**، ومقتضى طريقة التصوف السني أن الأمر يقف عند حدود الكمال الإنساني النسبي، ومهما اختلفت آراء الصوفية في حقيقة «الإنسان الكامل» فإنه يبقى محدودا ببشريته، وذلك معنى كون «أهل الصفة رضي الله عنهم تخلقوا بخلق النبي صلى الله عليه وسلم يعني قاربوا من خلقه عليه الصلاة والسلام، وإلا فلا يمكن التخلق بخلق الله عليه الصلاة والسلام على الوفاء والتمام، كيف والله تعالى يقول: ﴿وَإِنَّمَا لَعَلَّكُمْ خُلِّيَ عَنْكُمْ﴾ [القلم: 4] [المنفذ من الضلال، ص 172]. ويرقى الإنسان في المراتب على قدر عمله واجتهاده، والتشبه في الصفات ممكن، أما المنازل فقد جعل الله لكل شيء قدراً «وقد حاز عليه الصلاة والسلام مراتب الكمال على الوفاء... وأعطى عليه الصلاة والسلام الغاية من: الزهد، والورع، والخوف، والرجاء، والصبر والتوكل، والتسليم، والمحبة، والرحمة، والشفقة، والحلم، والكرم، والشجاعة، وكمال العقل، وتمام المعرفة، إلى ما لا يحصى؛ وكان أهل الصفة أشبه الناس به في هذه الأخلاق».

[الفتوحات الإلهية، ص 69].

– **الوسطية في العلاقات**، وتشمل علاقة الإنسان بنفسه وبغيره، سيما أمر العزلة والمخالطة الذي أخذ حيزا كبيرا من النقاش في الفكر الصوفي، وصفوة القول في ذلك أنها تختلف باختلاف الأحوال، قال الإمام الغزالي «إذا عرفت فوائد العزلة وغوائلها تحققت أن الحكم عليها مطلقا بالفضل نفيًا وإثباتًا خطأ؛ بل ينبغي أن ينظر إلى الشخص وحاله وإلى الخليط وحاله، وإلى الباعث على مخالطته، وإلى الفائد بسبب مخالطته من هذه الفوائد المذكورة... وكلام الشافعي رحمه الله هو فصل الخطاب؛ إذ قال: الانقباض عن الناس مكسبة للعداوة، والانبساط إليهم مجلبة لقرناء السوء؛ فكن بين المنقبض والمنبسط؛ فلذلك يجب الاعتدال في المخالطة والعزلة ويختلف ذلك بالأحوال» [إحياء علوم، للغزالي، 2/242].

– **الوسطية في كسب المعاش**، ومنهجهم في ذلك يختلف باختلاف المقاصد، وشرط الإقبال على الذكر والعبادة أن لا يؤدي إلى التفريط في الحقوق والاتكال على الناس، بل يعطي للعبادة حقها، ولكسب المعاش الذي هو أيضا من العبادة حقه، ويزن الأمور بميزان الشرع، وقد ذكر الإمام الغزالي أنه إن قيل «ما الأفضل أن يقعد في بيته أو يخرج ويكتسب؛ فاعلم أنه إن كان يتفرغ بترك الكسب لفكر وذكر وإخلاص واستغراق وقت بالعبادة، وكان الكسب يشوش عليه ذلك، وهو مع هذا لا تستشرف نفسه إلى الناس في انتظار من يدخل عليه فيحمل إليه شيئا؛ بل يكون قوي القلب في الصبر والاتكال على الله تعالى؛ فالمقصود له أولى، وإن كان يضطرب قلبه في البيت

ويستشرف إلى الناس فالكسب أولى؛ لأن استشراف القلب إلى الناس سؤال بالقلب وتركه أهم من ترك الكسب، وما كان المتوكلون يأخذون ما تستشرف إليه نفوسهم» [إحياء علوم الدين، 269/4].

- الوسطية في الفكر، وهي وسطية تمد صاحبها بالفكر المتزن الحكيم المعتدل، الناظر إلى الأشياء نظر المستبصر؛ حيث مستمد فكرهم ونظرهم إلى الأشياء وحكمهم عليها منطلقاً من الكتاب والسنة، لذا تجدهم أبعد الناس عن التكفير وأحرصهم على الترغيب في الخير والدعوة إلى الدين «لأن في التكفير خطراً، وتعظيمه ربما عاد على صاحبه بالضرر من جهة اتباع السامع لمبهماتة وموهماته». [قواعد التصوف، 150]. فلا حكم على أحد إلا من أهله ممن فقه الضوابط والموانع.

- الوسطية في الاستمتاع بطيبات الحياة الدنيا؛ فأرباب التصوف لا يحرمون أنفسهم الملذات ولا ينغمسون فيها، ومسلكتهم وسط واعتدال، قال الحكيم الترمذي جواباً لمن احتج بالآية القرآنية: ﴿فَلَمْ يَحَرِّمْ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْكَيْسِ وَالزَّيْفِ...﴾ [الأعراف: 30] «فهذا الاحتجاج تعنيف، ومن القول تحريف؛ لأننا لم نرد بهذا التحريم، ولكننا أردنا تأديب النفس حتى تأخذ الأدب وتعلم كيف ينبغي أن تعمل في ذلك، ألا ترى إلى قوله جل وعلا: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف: 33]. فالبغي في الشيء الحلال حرام، والفخر حرام، والمباهاة حرام، والرياء حرام، والسرف حرام، فإنما أوتيت النفس هذا المنع من أجل أنها مالت إلى هذه الأشياء بقلبها، حتى فسد القلب. فلما رأيت النفس تتناول زينة الله والطيبات من الرزق تريد بذلك تغنياً أو مباهاة أو رياء علمت أنها خلطت حراماً بحلال فضيعة الشكر، وإنما رزقت لتشكر لا لتكفر، فلما رأيت سوء أدبها منعها، حتى إذا ذلت وانقمعت، ورآني ربي مجاهداً في ذاته حق جهاده، هداني سبيله كما وعد الله: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنَّا فَتَبَيَّنَ لَهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: 69] فصرت عنده بالمجاهدة محسناً فكان الله معي، ومن كان مع الله فمعه الفئة التي لا تغلب، والحارس الذي لا ينام، والهادي الذي لا يضل، وقذف في القلب من النور نوراً عاجلاً في دار الدنيا حتى يوصله إلى ثواب الآجل» [الرياضة وأدب النفس، ص 124].

3. وسطية واعتدال طريقة الجنيد السالك

اختار المغاربة طريقة الإمام الجنيد في التصوف لما تقوم عليه من الوسطية والاعتدال في العمل والأخلاق، واجتناب الإغراق فيما لا تدركه العقول، فلا إفراط فيها ولا تفريط، وهي وسطية تشمل مختلف مجالات الحياة، وقد نقل الإمام الذهبي عن أبي محمد الجريري أنه سمع الجنيد يقول: ما أخذنا التصوف عن القال والقليل، بل عن الجوع، وترك الدنيا، وقطع المألوفات.

قلت (الذهبي): هذا حسن ، ومراده: قطع أكثر المألوفات ، وترك فضول الدنيا ، وجوع بلا إفراط . أما من بالغ في الجوع كما يفعله الرهبان ، ورفض سائر الدنيا ، ومألوفات النفس ، من الغذاء والنوم والأهل ، فقد عرض نفسه لبلاء عريض ، وربما خولط في عقله ، وفاته بذلك كثير من الحنيفية السمحة ، وقد جعل الله لكل شيء قدرا ، والسعادة في متابعة السنن ، فزن الأمور بالعدل ، وصم وأفطر ، ونم وقم ، والزم الورع في القوت ، وارض بما قسم الله لك ، واصمت إلا من خير ، فرحمة الله على الجنيد ، وأين مثل الجنيد في علمه وحاله؟ [سير أعلام النبلاء، 67/14].

التقويم

1. أبين معنى الوسطية والاعتدال .
2. أبرز أثر التصوف السني في بناء الفكر الوسطي .
3. أذكر بعض مظاهر الوسطية والاعتدال في التصوف السني .
4. أوضح وسطية واعتدال التصوف الجنيدي .

الاستثمار

قال الإمام الغزالي - رحمه الله -: «أمهات محاسن الأخلاق هذه الفضائل الأربعة، وهي: الحكمة، والشجاعة، والعفة، والعدل، والباقي فروعها، ولم يبلغ كمال الاعتدال في هذه الأربع إلا رسول الله ﷺ، والناس بعده متفاوتون في القرب والبعد منه، فكل من قرب منه في هذه الأخلاق فهو قريب من الله تعالى بقدر قربه من رسول الله ﷺ...»

[إحياء علوم الدين، 55/3].

أتأمل النص ، وأستخلص منه واقعية الفكر الصوفي ووسطيته في بلوغ الكمال الإنساني .

الإعداد القبلي

أبحث عن أثر الزوايا في تحصيل العلم وتحقيق التزكية .